ملامح عن الثقافة فى المجتمع السعودى

بقلم :
عبد الله بوقس
وكيل وزارة
الحج والاوقاف

المقدمة :

كلمة الثقافة في اللغة العربية تعني (الثقف) ومعناه ادراك الشيء وفعله ، يقال ثقفت كذا أي أدركته بالبصر لحذق في النظر ومنه أخذت كلمة (ثقافة) .

وقد كان مفهوم الثقافة في الماضي منحصرا في التعليم والتهذيب وتعددت وجهات النظر في تفسير مفهوم الثقافة ، فريق يرى أن الثقافة روحية بوجه عام فهي تنبع من الفطرة الانسانية المهذبة وهذا الفريق يعتبر العلوم الوصفية كالحساب والهندسة ، الخ بمعزل عن الثقافة ، لأن للعلم قاعدة وقانونا بعكس الثقافة ، وهذا الفريق يرى أن الحضارة غير الثقافة فكل أمة مثقفة متحضرة ولا عكس لأن الثقافة أعلى من الحضارة في سلم الحياة وفريق يرى أن الثقافة تعني الادب والفنون ، وفي العصر الحاضر حيث اتسعت آفاق المعرفة الانسانية أصبح للثقافة مفهوما جديدا يختلف من فرد لآخر في شتى أنحاء المعمورة ومن وجهة نظري أرى أن الثقافة تعني روافد المعرفة لكل القيم الانسانية ، وهي بهذا المعنى الشامل تعني التربية والتعليم والعلوم والفنون التشكيلية بشتى صورها وألوانها وكل ماجد من تطورات علمية تقنية حديثة وهي في تجدد مستمر تبعا لما يجد في العالم من تطورات حديثة من مبدعات الفكر الانساني .

وأجد من الصعب فصل العلوم عن الثقافة أو ايجاد فاصل بين الحضارة والثقافة فالكل يسير في حلقة متصلة لانهاية لها ، ومنذ أن خلق الله جل شأنه آدم أبا البشر والعقل الانساني ، ميزه الله عن غيره من مخلوقاته بالتفكير وتلك نعمة كبرى وهبة لاتقدر بثمن من خالق هذا الكون سبحانه وتعالى ، وفي القرآن الكريم دلائل وشواهد لاتحصى ولا أريد أن أطيل في هذا المجال ، فالحديث فيه شائق وواسع لاتفيه محاضرة واحدة أو أكثر بل كتب ، كما ان لكل فرد وكل أمة وجهة نظر معينة لمفهوم الثقافة ، وسوف أقصر حديثي هنا على مفهوم الثقافة بالنسبة للمجتمع السعودي ، وكان بودي لو كان الوقت يسمح للحديث بتفصيل أكثر لأن للثقافة في بلادنا جذورا عميقة اذا استعرضنا التطورات التاريخية والحضارية التي مرت بها بلادنا منذ عهد سيدنا ابراهيم عليه السلام وحتى عهدنا الحاضر ·

ورغم ماألف من كتب ومجلدات في هذا المجال الا أنه قطرة من بحر ومن هنا كان اهتمام بلادنا بتأسيس (دارة الملك عبد العزيز بالرياض) للعناية بتراث تاريخ بلادنا لكي يجد فيه الباحث والمفكر متعته العلمية والثقافية وعلى الرغم من أن هذه الدارة حديثة التكوين الا أنها استطاعت أن تجمع حصيلة كبرى من الكتب والوثائق والمصادر الاساسية وتصدر مجلة علمية تاريخية ثقافية ، وتشجع كتابة الابحاث في هذا المجال بكل اللغات ومن المؤمل أن تكون هذه الدارة في المستقبل موردا عذبا يستقى منه راغب المعرفة الحقائق العلمية السليمة النزيهة ·

وثمة مؤسسة ثقافية جديدة (مؤسسة الملك فيصل الخيرية) أسست حديثا تخليدا لذكر رجل عظيم له تاريخ مجيد حافل لا في السعودية فحسب بل في العالم أجمع هذه المؤسسة أسسها أبناؤه البررة وشارك فيها كل فرد في الاسرة المالكة وعلى رأسهم صاحب الجلالة الملك خالد بن عبد العزيز وصاحب السمو الملكي الامير فهد بن عبد العزيز ولي العهد المعظم وأتيح لكل فرد من الشعب السعودي الاسهام في هذه المؤسسة ·

ولهذه المؤسسة مخطط بناء محكم للعلم والبحث والثقافة على أوسع نطاق ومن أهم أهدافها تشجيع الابحاث العلمية والآداب والعلوم والفنون ، وقد كان أول ثمراتها اصدار مجلة دورية أسمتها (مجلة الفيصل) وهي مجلة علمية ثقافية تربوية جامعية وحديثنا عن ملامح الثقافة في مجتمعنا والعقبات التي مرت بها والتخطيط الشامل لها واسع وضخم ولكني سأحاول في اطار

الوقت المحدد للمحاضرة استعراضه بصورة سريعة ونبدأ بالقاعدة الاساسية والركيزة الهامة للبناء الثقافي (التربية والتعليم) فالسياسة العامة لبناء هذا الكيان في بلادنا بنيت على أساس متين من شريعتنا الاسلامية الغراء ، لكافة مراحل التعليم وفق تخطيط بناء يهدف الى بناء كيان سليم للفرد والمجتمع ، لايماننا الكامل بأن الاسلام دين متكامل صالح لكل زمان ومكان وليس في هذا تعصب أو جمود كما يسميه الحاقدون من أعداء الاسلام ..

فالمنهج الاسلامي واضح المعالم لا لبس فيه ولا غموض ودستوره القرآن الكريم المنبع الاساسي ويليه أحاديث رسولنا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ثم ماالف بعد هذا من كتب في التشريع الاسلامي .

والتربية والتعليم في المجتمع السعودي مرت بمراحل متطورة شأنها شأن أي مجتمع آخر والعملية التربوية مستمرة في تطورها ، ومن خلال جدول الاحصائيات الذي وزع عليكم تدركون مدى التطور السريع الذي واكب نهضتنا التربوية والتعليمية والثقافية في شتى مجالاتها المتعددة .

والمدرسة أو الجامعة وان كانت أصلا كمراكز علمية وتربوية الا أنه روعي فيها أن تكون مراكز اشعاع للمعرفة والثقافة على نطاق المجتمع السعودي ككل وعلى نطاق المجتمع العربي والاسلامي والدولي ، وهذا أمر لايدركه الكثيرون الا من تابعه عن بحث ودراسة أو من زار بلادنا وأدرك عن كثب حقيقة ماذكرت .

ومن الطبيعي أن هذا التطور السريع قد صادفه عقبات كثيرة ولكن القيادة الحكيمة الواعية قد استطاعت تذليل هذه العقبات لتواكب المسيرة الحضارية في شتى مجالات العلوم والمعرفة والثقافة والانسانية ، ومنهاجنا التربوي مزيج من ثقافات متعددة تعنى بتربية الفرد والجماعة ، آخذة في الاعتبار تثقيف الفرد بمجتمعه السعودي والعربي والاسلامي والدولي ..

وهذا واضح اذا ألقينا نظرة على النمو السريع التي مرت به الحركة التعليمية في بلادنا في شتى مراحلها المختلفة ، وفي المملكة العربية السعودية الآن وزارتان : احداهما للتعليم العالي والاخرى للتعليم العام ، ورئاسة عامة لتعليم البنات وست (٦) جامعات اضافة الى مجلس أعلى للتعليم مهمته التخطيط التربوي والتعليمي للسياسة العامة التعليمية ومجلس أعلى للجامعات

لسياسة التخطيط التربوي للجامعات .. ومراكز أبحاث علمية بعضها تابع للجامعات وأخرى تابعة لوزارات متعددة ..

ووزارة للتخطيط ، ورئاسة عامة لرعاية الشباب مهمتها رعايةالانشطة الرياضية والادبية والاجتماعية والفنون ، وبين الجميع تعاون وارتباط وثيق للتنسيق الشامل لكل مايخدم المصلحة التربوية والتعليمية والثقافية ، لكن المدرسة والجامعات وان كانت في اطار منهجها العام أو أنشطتها اللامنهجية تهتم بالنواحي الثقافية الا أنها قطرات من بحر زاخر ..

ومن هنا بدأت انطلاقات حية جديدة ، ففي **مجال الثقافة العامة ،** أقيمت أندية ثقافية ترعى فنون الادب في مختلف مقاطعات المملكة ، وتحظى هذه الاندية بمعونة مادية سخية من الدولة لتمارس أنشطتها الادبية ، وبدأت ارهاصات لمحاضرات وندوات وحركة تأليف وطباعة لانتاج بعض الكتاب والادباء والعلماء ، وقد كان التأليف قاصرا في الماضي على مجهود فردي أو بتشجيع من احدى الوزارات ، وظهرت في الافق مؤلفات سعودية جديدة سوف تكون على مدى الايام حصيلة زاخرة للمؤلفات السعودية مما يعطي انطباعا طيبا عن علمائنا وأدبائنا ومفكرينا ، كما بدأت دور النشر السعودية تولي اهتماما بالمؤلفات السعودية وطباعتها ونشرها ، سواء باللغة العربية أو مؤلفات أخرى بعد أن وجدت مساهمة مادية تشجيعية من الدولة لرعاية هذه المؤلفات وقد كان هذا احدى العقبات التي واجهها الباحث والمفكر السعودي اذ خفف عنه أعباء مالية كان يواجهها في نشر انتاجه كجهد فردي .

وفي **مجال الصحافة السعودية** تطور جديد بعد أن وجدت مساهمة مادية سخية من الدولة ، وبدأت تعنى بالتثقيف وظهرت صحف جديدة باللغة الانجليزية يستطيع القارىء الاوربي من خلالها متابعة الفكر السعودي وأنشطته العامة ، ومجلات علمية وثقافية وأصبح للصحافة السعودية نشاطها الخارجي في الدول العربية والاسلامية ومكاتب في بعض دول أوربا ، لتوثيق صلاتها برصيفاتها من صحف العالم والتعاون معها .

وفي **مجال الاعلام :** سواء أكان عن طريق الاذاعة أم التلفاز نشاط متعدد ضخم يلمح هذا منْ خلال البرامج المتنوعة العلمية والثقافية التي تقدمها الاذاعة والتلفاز .

وفي مجال الجامعات : وبعض الوزارات أنشطة علمية وتربوية وثقافية على مستوى عربي واسلامي ودولي ، تمثلت في اقامة مؤتمرات اسلامية وتاريخية وتربوية وعلمية دعى اليها جهابذة الفكر والعلم والشريعة من شتى أنحاء العالم العربي والاسلامي والدولي .. اضافة الى مشاركة المملكة الايجابية في كافة المؤتمرات السياسية والعلمية والثقافية سواء في البلاد العربية أو الاسلامية أو أوربا وأمريكا وذلك للاستفادة من كل جديد يعود بالخير على مجتمعنا .

وفي مجال الفنون لم تجد في الماضي رعاية كافية لكنها في الوقت الحالي بدأت تشق طريقها حثيثا لتواكب البلدان التي سبقتها في هذا المجال ذلك أن الفنون كل ألوانها ذات أهمية كبرى في عالم الثقافة .

والرئاسة العامة لرعاية الشباب أعطت لهذا المجال عناية واهتماما كبيرا وقد شاركت المملكة في معارض لرسوم الاطفال ومعارض فنية لفنانين سعوديين في بلدان عربية وآسيوية وأفريقية وأوربية ، وفي المملكة جمعية للفنون تعنى بكل ألوان الفنون من موسيقى وغناء وفنون تشكيلية وكان هذا احياء لفنون قديمة أصيلة كادت أن تبلى لو لم تجد التشجيع وقد شاركت الجمعية بأسبوع فني في كل من تونس والمغرب ودول أخرى ، وهي الآن بصدد اعداد لأسبوع فني في بلدان أوربا سوف يبدأ في ألمانيا قريبا لكي يتعرف الشعب الاوربي من خلاله على نماذج من الفن السعودي وتراثه وثمة مجلس أعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب يعنى بنشر تراثنا الادبي والفكري والعلمي برئاسة صاحب السمو الملكي الامير فهد بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية .

أما العقبات التي عرقلت تطور النمو الثقافي في بلادنا فقد كانت في الماضي مادية وتخلف في التعليم ، وحذر شديد في تقبل أي فكر ثقافي جديد قادم من الخارج .. وهذا شيء طبيعي في تاريخ الامم وخاصة لبلاد كانت تخضع لنفوذ مجموعة من الحكام حتى تم توحيد أجزائها على يد المغفور له جلالة الملك الراحل عبد العزيز آل سعود في مملكة واحدة شاسعة الاطراف تبلغ مساحتها ٢ر٢٥٠ر٠٠٠ كيلو مترا مربعا .

والباحث التاريخي المنصف يستطيع أن يدرك كيف استطاعت هذه البلاد النامية منذ توحيدها تحت اسم المملكة العربية السعودية أن تواصل المسيرة

الحضارية في حكمة وتعقل في معالجة الصعوبات والعقبات حتى عصرنا الحاضر ولا تزال تواصل السير حثيثا بفضل قيادتها الواعية المخلصة ·

ولكن الثقافة بمفهومها العام ستظل في مواجهة مستمرة حامية الوطيس مادام هناك تقدم تكنولوجي وصراع دولي تجاه المشكلات الرامية الى احلال السلام بين شعوب العالم وهذا أمر يدركه أقطاب السياسة وأساطينها ·

ومن أهم العقبات التي واجهتنا ونحاول التغلب عليها مرحليا بعد زوال العقبة المادية مايلي :

١ ـ التربية والتعليم :

وهذا أساس هام لبناء الثقافة ·

ورغم الجهود الجبارة المبذولة في ايجاد شباب متعلم مثقف سواء أكان ذلك عن طريق الابتعاث للخارج لكافة دول العالم أم تعليمهم داخل الوطن بالجامعات والمعاهد الا أن عجلة تطور النمو السريع تجعلنا دائما نستقطب كفاءات علمية من خارج الوطن للمشاركة والمساهمة في البناء ودول العالم كلها تعاني نفس الشيء ·

والتخطيط للبناء المتكامل يسير في توازن حتى نحقق مانصبو اليه من الاكتفاء الذاتي في شتى المراحل التعليمية ·

٢ ـ التكوين الجسمي والعقلي :

تقول الحكمة العربية المشهورة (العقل السليم في الجسم السليم) ·

وبناء الجسم يتطلب اشرافا صحيا دقيقا وأنواعا متعددة من ألوان الرياضة ، وهذا ماتحاول الدولة في تخطيطها التغلب عليه بدءا من المدرسة وتبذل في سخاء لرصد ميزانية ضخمة للرعاية التربوية والصحية والرياضية والاجتماعية والاقتصادية ، والعقل زاده العلم والمعرفة والثقافة ، والانسان

يظل متعطشا لهذا الدواء حتى نهاية العمر وفي بلاد كالمملكة العربية السعودية تسير على نهج اسلامي قد لاتستسيغ بعض مايسمى بالثقافة بالخارج ، خاصة اذا كان ذلك يتعارض مع قيمنا الاسلامية ، ولهذا فاننا نجد صعوبات بالغة في التكيف مع هذه الالوان المتعددة من الثقافة الخارجية ، وأرجو ألا يفهم هذا على أنه تعصب ديني أو حجر على العقول ، لأن المسلم المتمكن يستطيع أن يميز بين الغث والثمين والصالح والضار ..

وان كان من المؤسف أن بعض الشباب السعودي ممن تعلم خارج وطنه قد تأثر ببعض ألوان من الثقافة التي قد لايستسيغها مجتمعه وأثرت عليه ، لكنه بعد اندماجه في المجتمع وعبر التجربة التي مر بها بعد عودته للوطن وبوازع العقل المتزن عاد الى طريق الحق والصواب ، وكما يقولون : الرجوع الى الحق فضيلة .

وفي المجتمع العربي والاسلامي نماذج متعددة من كبار المفكرين تأثروا بتيارات فكرية ضارة واتخذوا من تجربتهم القاسية دروسا لتوعية مجتمعاتهم حتى لايضار الشباب المتأثر بأفكارهم السابقة .

لهذا فان السياسة الحكيمة التي تسير عليها بلادنا بعد التجارب الطويلة التي مرت بها تهيئة كلماينمي الجسم والعقل داخل المجتمع السعودي خاصة بعد أن أصبح لدينا ست جامعات في مختلف التخصصات ، وقصر الابتعاث الى الخارج لدراسة الماجستيراه أو الدكتوراه في مجالات متعددة من التخصصات مما قد لايتوفر تهيئتها في نطاق الجامعات السعودية والمجتمع العربي والاسلامي ككل قد عانى صعوبات كبرى من تأثير الحضارة الاجنبية وثقافاتها المتعددة والتكيف بها ويحاول التخلص من كل مايسمى بثقافة لاتتواءم مع قيمهوتقاليده العربية أو الاسلامية .

ومجتمعنا السعودي أقل تأثرا من غيره للحذر الشديد في تقبل أية ثقافة خارجية قبل التأكد من ملاءمتها لقيمنا وعاداتنا الاسلامية ، لايماننا بأنالاسلام كعقيدة نظام متكامل للحياة ، وتلك هي الخطوط الرئيسية لمنهاج الحياة فيها سياسية أو اقتصادية أو تربوية أو اجتماعية .

التقدم التكنولوجي :

التكنولوجيا الحديثة في عالم اليوم تجد اهتماما من كل الدول بما في ذلك الدول النامية ، لكن التقدم الصناعي بما اخترعه الفكر الانساني من معدات تقنية مزيج متنوع يمكن أن يستخدم لما فيه خير الانسانية أو دمارها .

وبلد كالسعودية محال أن تظل بمعزل عن أي تقدم في عالم التكنولوجيا حرصا منها على بناء مستقبل أفضل لمجتمعها ومعاونة أشقائها من العرب والمسلمين عملا بقول رسولنا الكريم محمد عليه السلام : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) وملاحقة موكب هذا التقدم الصناعي التكنولوجي ضرورة من ضروريات الحياة لأن العلم لا وطن له ، ومنهجنا الاسلامي يحثنا دوما على الاخذ بكل مافيه تقدم الانسانية وخيرها (اطلبوا العلم ولو في الصين) .

واتجاهنا بناء الكيان الصناعي لبلادنا قد أثر على روافد الثقافة الحضارية الاخرى وهو ماتحاول القيادة الواعية في بلادنا ايجاد تخطيطمتوازن ليضمن تقدمنا في هذا المجال التكنولوجي مع الاخذ بعين الاعتبار ألا يكون ذلك على حساب اهمال روافد الحضارة الثقافية الاخرى ..

بقيت كلمة أخيرة عابرة عما نسميه ثقافة وأبعادها وآثارها ونتائجها بالنسبة للمجتمع الانساني في رأيي أن الانسان منذ ولادته وحتى آخر رمق من عمره في حاجة الى رواء ثقافي عام وشامل لكن الثقافة اليوم أصبح لها مفهوم خاص ، فالرجل السياسي قد لايهتم الا بما يحقق له النجاح في مهمته كسياسي .

والطبيب المتخصص قد لايهتم الا بما جد من تطور له علاقة بتخصصه ..

والاديب قد لايعني الا بما يهواه من أنواع الادب .

والعالم قد لايهتم الا بما له علاقة وثيقة بتخصصه .

وان سألت أحدهم عن أنواع أخرى من الثقافة لاتجد لديه ادراكا أو معرفة ، وربما وجدت عند البعض فهما بسيطا ·

وليس عيبا أن يبرز المرء في مجال اختصاصه او أن يعطي له اهتمامه الكبير لأن التخصص في عالمنا المتحضر اليوم ضرورة هامة لاغنى عنها خاصة اذا كان له تأثيره على سعادة الانسان ، لكن هذا لايعفي أحدهم عن الالمام بالثقافة ككل ، خاصة أولئك الذين وصلوا الى مراتب عليا من المؤهلات العلمية والتخصصات النادرة وقصرت بهم الهمة عن التثقيف الذاتي ··

والثقافة بحر لا ساحل له طالما أن الفكر الانساني طاقة كبرى ومبدعاته لاحدود لها والله سبحانه وتعالى حين أوجدنا في هذا الكون ، قال جل شأنه :

(ياأيها الناس انا خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن هذا المنطلق فان زاد المعرفة بين الشعوب ورباطها المحكم يكمن

(ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن هذا المنطلق فان زاد المعرفة بين الشعوب ورباطها المحكم يكمن في التفاعل الثقافيالحقيقي البعيد عن أي مؤثرات فالثقافة الاصلية متى أدركناها عن بصيرة وفهم أمكننا أن نحقق السلام والامن والطمأنينة والاستقرار والمحبة والوئام وكل مافيه سعادة البشر وقل : (ربي زدني علما) و (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) ، صدق الله العظيم ·

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ·

عبد الله بوقس